

دراسة حول
التمثيل الاجتماعي
للتعذيب وسوء المعاملة
لدى الشباب في تونس

ما كشف
الحاكم!





« ماكش الحاكم! »

دراسة حول التمثيل الاجتماعي
للتعذيب وسوء المعاملة
لدى الشباب في تونس



MHPSS ProCare Firm
A Balanced Professional Life

أعدّها:



ملخص

01. سياق الدراسة

التعذيب ممنوع في القانون منعاً مطلقاً، ولا يمكن لأي سبب أن يبرّره³. ومع ذلك، لا يزال التعذيب يمارس فعلياً في العديد من البلدان⁴. وهذه الفجوة لا تقتصر على مستوى المؤسسات، بل تمتد أيضاً إلى الأذهان؛ فالممارسة تبقى حية في الطريقة التي يفكر بها المجتمع في التعذيب، ويصنّفه، ويلتمس له الأعذار، ويبرّره. ولذلك، فإنّ فهم كيفية تمثّل الشباب للتعذيب وسوء المعاملة يكتسي أهمية مزدوجة، للمعرفة وللعمل على حدّ سواء.

وتشكل تونس ما بعد 2011، تجربة بحثية مهمة. فالتعذيب محظور فيها بموجب الدستور، وهذا المنع غير قابل للتقادم، أي إنّ جريمة التعذيب يمكن تتبّعها دون سقف زمني. ومع ذلك، تُبلّغ المنظمات الوطنية والدولية بانتظام عن استمرار هذه الممارسة⁵.

تهتمّ الدراسة بالشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و23 سنة، أي بالجيل الذي نشأ بعد الثورة، والذي يُفترض، نظرياً، أنّه الأكثر تعرّضاً للانتهاكات، مثل عمليات التثبّت من الهوية والإيقافات والاحتفاظ. وانطلاقاً من ذلك، تطرح هذه الدراسة ثلاثة أسئلة رئيسية: كيف يعرّف هؤلاء الشباب التعذيب وسوء المعاملة؟ وكيف يُبنى هذا التمثّل الاجتماعي ويستمرّ ويتطوّر؟ وهل يتغيّر الحكم على فعل عنيف باختلاف هوية الشخص الذي يتعرّض له؟

02. المنهجية

جمعت عشر مجموعات نقاش 86 شاباً وشابّة، تتراوح أعمارهم بين 18 و23 سنة، موزعين بحسب درجة تعرّضهم المحتملة للعنف المؤسّساتي⁷.

وتدرج ستّ مجموعات ضمن فئات يُحتمل أن تكون أكثر عرضةً للتعرّض لهذا العنف: مجموعة من الشبّان ومجموعة من الشابات المعيّنين بالقانون⁸، ومجموعة من شباب الأحياء الشعبيّة، ومجموعة من أشخاص المجتمع ميم-عين، ومجموعة من مشجعي الرياضة، ومجموعة من ناشطي المجتمع المدني.

وأربع مجموعات تدرج ضمن خطر عاديّ للتعرّض: شباب من الطبقة الوسطى في تونس وصفاقس وسوسة وقابس.

3. «لا يجوز التدخّل بأية ظروف استثنائية أثبتت، سواء أكانت هذه الظروف حالة حرب أو تهديداً بالحرب أو عدم استقرار سياسي داخلي أو أية حالة من حالات الطوارئ العاقبة الأخرى، كميّز للتعذيب.» (الأمم المتّحدة، 1984، المادة 2، الفقرة 2).

4. هذه الفجوة بين الحظر والممارسة موثّقة جيّداً في البحث الدولي: (Cohen, 2001)؛ (Crelinsten, 2003)؛ (Kearns, 2015). وترد المراجع الكاملة في آخر الوثيقة.

5. المصطلح العلمي هو «التمثّل الاجتماعي»: معرفة عادية، يسوّهاً وينقاسمها فريق، وتوجّه النظر والفعل (1976؛ 1961؛ Moscovici, 2003؛ Abric). وهذا هو موضوع الدراسة بالضبط: لا التعذيب وسوء

المعاملة في ذاتهما، بل الفكرة التي يكوّنها الشباب عنهما جماعياً.

6. يصنّف المؤشّر العالمي للتعذيب (2025) تونس ضمن البلدان ذات «الخطر المرتفع» (OMCT, 2025). واستقبل برنامج «سند» التابع للمنظمة العالمية لمناهضة التعذيب 177 شخصاً جديداً من ضحايا التعذيب وسوء المعاملة بين ماي 2025 وأفريل 2026 (OMCT, 2026). ومنذ 2022، لاحظت اللجنة الفرعية للأمم المتّحدة لمنع التعذيب استمرار العنف الأممي، الذي يعذّبه إصابات مرتكبيها من العقاب (HCDH, 2022).

7. العتية موصوفة بأنّها «قصيدة» (Patton, 2015). فهي لا تستهدف التمييزية الإحصائية، بل تنوّع المواقع والتجارب. ويستند التوزيع على مستويي خطر إلى نظرية «المسافة من الموضوع» (Negura, 2006). إذ لا تنتج التجربة القريبة والتعرّض للبعد التمثّل نفسه لظاهرة ما.

8. يعاقب القانون عدد 52-92 المؤرّف في 18 ماي 1992 والمتعلّق بالمخدرات على استهلاك المخدرات وجازائها والاتجار بها في تونس. والشباب المعيّنون به معزّون بشكل خاصّ لعمليات التثبّت والإيقافات والاحتفاظ.

وكانت كلّ جلسة تتّبع المسار نفسه تقريبًا. يكتب كلّ شخص أولًا خمس كلمات توحى بها إليه عبارة «التعذيب وسوء المعاملة»، ثمّ تناقشها المجموعة وتصف المشهد النموذجي. وتأتي بعد ذلك ستّة سيناريوهات: مشهد عنف واحد يُغيّر فيه عنصر واحد في كلّ مرّة: شدّة الضرب، أو الفاعل، أو الضحية (لمعرفة ما إذا كان توصيف «التعذيب وسوء المعاملة» لا يزال قائمًا). وتنتهي الجلسة بتبادلات تركيبية (اختيار «هاشتاغات»)، وبسؤال إسقاطي: «ماذا سيفعل التونسي في ذلك؟»⁹، و«لماذا لا يرى المجتمع ما ترونه أنتم؟».

ثمّ خلّلت المعطيات بطريقتين متكاملتين. ترسم الأولى خريطة التمثّل الاجتماعي: الكلمات، وروابطها، وما يصمد منها حين يوضع على المحك¹⁰. أمّا الثانية، فتتّبع ما يفعله الشباب حين يتكلّمون: كيف يتعلّمون، ويصفون، ويصحّحون أنفسهم، ويبرّرون، داخل المجموعة وفي أثناء التفاعل المباشر¹¹. ويتيح هذا التحليل الثاني وصف كيفية بناء التمثّل الاجتماعي للتعذيب وسوء المعاملة، واستمراره وتطوّره، بالنسبة إلى كلّ صنف من المجموعات. وفي الصفحات التالية، تُدمج النظرتان في سرد واحد.

ولا بدّ من توضيح نقطة أساسية منذ البداية، لأنّها تغيّر قراءة النتائج كلّها. إذ لا يعرف أيّ من المشاركين والمشاركات التعريف القانوني للتعذيب، سواء تعريف اتفاقية الأمم المتحدة أم تعريف القانون التونسي. فما ترسم الدراسة خريطة ليس مقولة قانونية، بل تجربة اجتماعية. سواء كانت معيشة أو ملاحظة أو مقولة. ومن المهمّ أيضًا توضيح أنّه، لأسباب أخلاقية، لم نُكوّن أيّ مجموعة تتألّف حصريًا من ضحايا مباشرين؛ غير أنّ مجموعات الخطر المتزايد للتعرض تضمّ العديد من الشهادات بصيغة المتكلّم، تتعلّق بثبوت من الهوية، وشتائم، وضرب، وإمضاء قسري، واحتفاظ، وفقدان قريب

السيناريوهات الستّة والعنصر الذي تختبره

تصوّر السيناريوهات الستّة كلّها مشهد عنف يمارسه فرد على آخر. وقد صيغت انطلاقًا من السيناريو صفر (س0)، وهو السيناريو النموذجي للتعذيب وسوء المعاملة الذي صاغه المشاركون والمشاركات قبل الانتقال إلى السيناريوهات الاختيارية المختلفة. ويجسّد هذا السيناريو المشهد النمطيّ الذي يتمثّله المشاركون والمشاركات للتعذيب وسوء المعاملة.

ويرتكز كلّ سيناريو من السيناريوهات الستّة التي نوقشت لاحقًا على السيناريو صفر، مع إدخال تغيير واحد في كلّ مرّة. وتتمثّل الغاية من ذلك في تدقيق حدود التمثّل الاجتماعي للتعذيب وسوء المعاملة، من خلال تحديد العناصر التي تُسهم في بنائه، وتلك التي لا تُسهم فيه.

س1: العون نفسه و الهدف نفسه، ولكن مع صفة واحدة مصحوبة بإهانات، دون توجيه ضربات عنيفة. ويختار هذا السيناريو عتبة العنف الجسدي

س2: العون نفسه، ولكن من دون أي تماس جسدي، وإنما تقتصر الأفعال على الإهانات والتهديدات الموجهة إلى الأسرة. ويختار هذا السيناريو مدى ضرورة الاتصال الجسدي .

س3: الوضعية نفسها التي يعرضها س0، ولكن مع عون آخر من أعوان الدولة، مثل عون بلدي. ويختار هذا السيناريو مدى ارتباط التمثّل بصفة الشرطة تحديدًا.

س4: نفس الوضعية، لكن مع فاعل مدنيّ، هو الجار. وهو يختار الطابع الرسمي للفاعل.

س5: نفس المشهد، لكن مع ضحية تنتمي إلى مجموعة أقلية. وهو يختار مدى شمولية القاعدة وعدم ارتباطها بفئة معينة، وكذلك البعد التمييزي فيها.

س6: شاب يضربه عون من أعوان الدولة بعد أن انتزع حقيبته امرأة مسنة. وهو يختار التأثير بالاستحقاق.

9. تُستعمل هذه التقنية الإسقاطية للكشف عما يسقيه البحث «المنظفة الصامتة» (Abric، 2003)، أي الجزء من الفكر الجماعي الذي يفعل فعله، لكن لا يجرى المرء على تحفله بصيغة المتكلّم. ونسبته إلى «التونسي المتوشط»، يستطيع كلّ شخص أن يقول بصوت عالٍ ما يفكر فيه في سرّه.

10. تقنيًا: تحليل نموذجي (تقاطع تواتر الكلمة مع رتبة استحضارها المتوسطة، وتحليل التشابكات (قوة التلازمات مقيسة بمؤشر Dice، ممثلة في رسوم بيانية). ثمّ التحقق من المركزية بوضعها على محكّ السيناريوهات، وفق الاختيار المرجعي لـ (Abric، 2003). البرمجيات المستعملة: RaMuTeQg Pointe au sel.

11. إنّها «النظرية المحذرة البناية» لـ (Charmaz، 2014). وقد قُطعت المدونة إلى نحو 9400 مقطع، شُفّي كلّ منها بفعل حدث في صيغة اسم الفاعل («متعلّم»، «موصّف»، «مفاوض...»). ثمّ خُفّعت في نحو مائة فئة، نُظمت بحورها في نماذج تفسيرية. وأجرى التحليل ببرمجية -MAXQ-DA، مع تتبع متواصل للقرارات وللموقع الباحث (Charmaz، 2014؛ Paillé et Mucchielli، 2008).

03. التعذيب وسوء المعاملة والعنف: أين يرسم الشباب الحدود

لنبدأ بالنتيجة المركزية للدراسة، تلك التي تنتظم حولها سائر النتائج: كيف يميز الشباب بين «العنف» و«سوء المعاملة» و«التعذيب»؟

تمثّل مشترك بين جميع المشاركين والمشاركات

حين نسأل الشباب الستّة والثمانين عن الكلمات التي توحى بها إليهم عبارة «التعذيب وسوء المعاملة»، تتكرّر أربع كلمات، في مختلف المجموعات ومنذ بداية النقاش: «ضرب»، «بوليس»، «عنف» و«ظلم». وقد يُحِيل للمرء أنّ التعريف يكمن في هذه الكلمات. غير أنّ وضعها على محكّ السيناريوهات¹² يغيّر هذه القراءة. فعندما يرتكب جازّ العنف نفسه الذي يرتكبه شرطي، يرفض الجميع تقريباً، في صنفى المجموعات معاً، وصف ذلك بأنّه تعذيب؛ فهو بالنسبة إليهم «عنف» أو «سوء معاملة». وبالتالي، لا تكفي أيّ من الكلمات الأربع الأكثر تواتراً، بمفردها، لتعريف التعذيب وسوء المعاملة.

أما ما يحدّد التعذيب حقاً، فهو قاعدة علاقيّة: أحد الطرفين يستطيع أن يضرب، بينما لا يستطيع الطرف الآخر الردّ. ولا يتوقّر له أي آلية للانتصاف. وتسقي الدراسة هذه القاعدة «اللاتماثل غير القابل للعكس في علاقات القوة»¹³.

«موش تعذيب، خاطر إنت ça y est باش ترجع عليه ردّة الفعل متاعو [...] تتعارك أنا وبام، كيما هو باش ياخذ حقو أنا باش ناخذ حقّي [...] وقتاش يوّلّي تعذيب؟ وقتلي إنت الإنسان هذاك اللي سبقك وهانك ما عندك ما تعمل له، وقتها هذاك يوّلّي تعذيب [...] بوليسي لا، هو يحكم وإنت لا، إنت ما تنجّمش تاخذ حقك خاطر الدولة معاه.»

مجموعة الأحياء الشعبيّة، سيناريو الجار

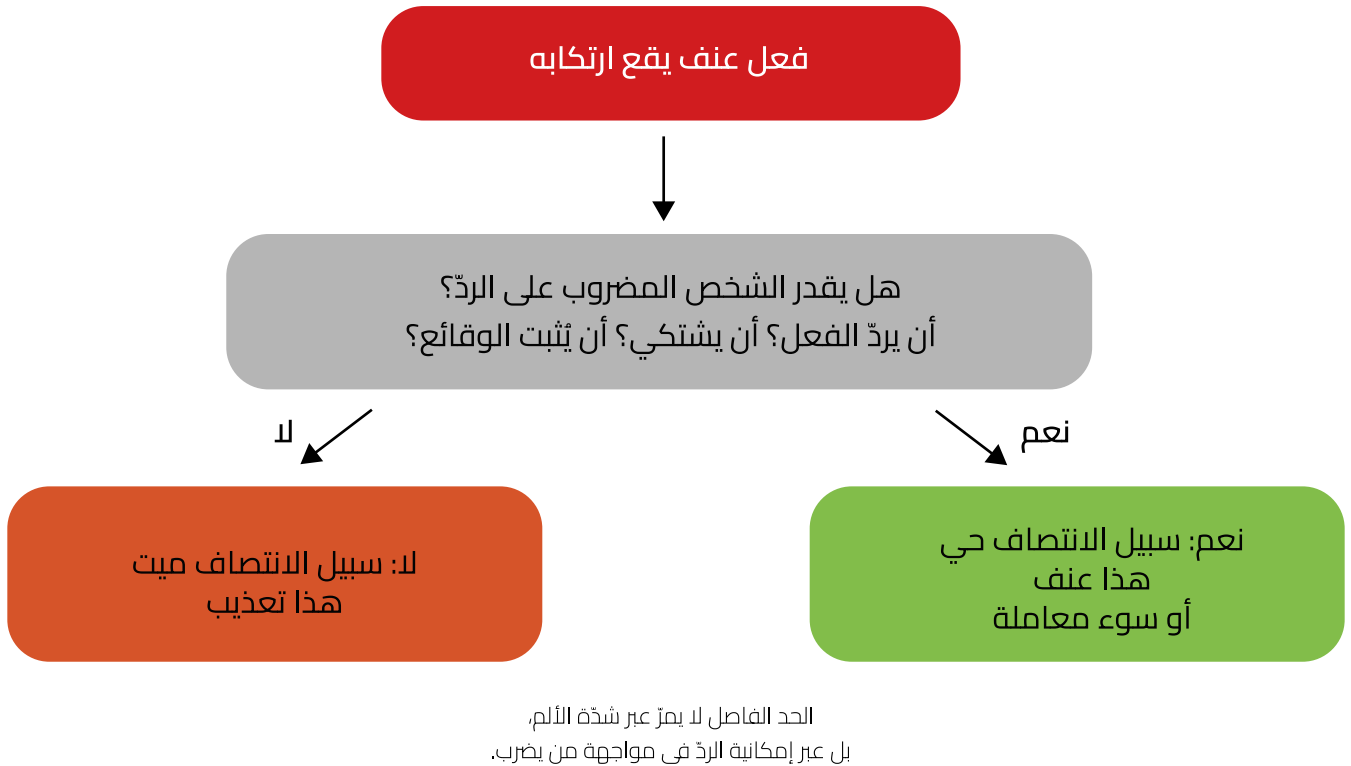
«هو مواطن كيفي كيفو، donc اللي يمارسو عليّ أنا هذاك عنف، أما وقتلي نفس l'acte هذاك يمارسو مثلاً موظّف عمومي، وقتها يوّلّي تعذيب. علاش؟ على خاطر la dynamique متاع le pouvoir بيّني أنا والموظّف هذاك.»

مجموعة المجتمع ميم-عين، سيناريو الجار

وعملياً، يرسم الشباب الحدّ الفاصل من خلال خمسة أسئلة تتحقّق جميعها من المسألة نفسها: هل يمكن ردّ الفعل بالمثل؟ من يضرب، ومن أيّ موقع؟ إلى أيّ حدّ يصل العنف؟ أهو فعل معزول أم ممارسة مستقرّة؟ وهل يمكن للشكاية أن تصل إلى نتيجة؟ وتنظر هذه الأسئلة الخمسة إلى الواقعة نفسها من خمس نوافذ: هل سبل الانتصاف من الاعتداء حيّة أم ميتة، أي هل هي متاحة أم غير متاحة؟ فما دام الشخص قادراً على التفاعل بإحدى هذه الطرق على الأقلّ، فسيبل الانتصاف حيّ. وينيقي في نطاق العنف أو سوء المعاملة. وحين لا يعود أيّ من هذه السبل يشتغل، يكون سبيل الانتصاف ميتاً، فننتقل إلى التعذيب.

12. زُعم موقف كل مجموعة من كلّ سيناريو وفق شبكة بسيطة: تُبقي على توصيف التعذيب و/أو سوء المعاملة، أو نرفضه، أو نتردّد، أو نضع شروطاً. ثمّ فوطع هذا الموقف مع التسمية المستعملة، «تعذيب فقط»، أو «سوء معاملة فقط»، أو «استعمال متبادل للظلم»، أو «رفض التسميتين».

13. في نظرية المثاليات الاجتماعيّة، تشكّل الأفكار التي تتفاسمها المجموعة كلّها والتي تمنح معناها لكلّ ما عداها «النواة المركزيّة»: أفا الأفكار الأكثر شخصيّة وثقافيّةً فتشكّل «المحيط»، الذي يمتدّ من الصدمات حتّى لا تترجّح النواة (Abric, 2003)؛ Flament et Rouquette, 2003؛ Guimelli). والنتيجة المعروضة هنا تدقّق هذا النموذج: فالنواة الحقيقيّة ليست كلمة، بل قاعدة علاقيّة، ومركزيتها لا تُثبت بتواتر الكلمات، بل بمقاومتها لوضعها على محكّ السيناريوهات.



الرسم 1. الحدّ الفاصل بين العنف وسوء المعاملة والتعذيب، كما يرسمه الشباب.

ولهذه القاعدة نتيجة مباشرة: يمكن أن يوجد التعذيب دون أيّ عنف. فالشتائم والتهديدات التي تطال العائلة والاحتقار والصمت المفروض والإهانة تكفي، ما دام الشخص المستهدف غير قادر على الردّ، وما دامت سبل الانتصاف ميّنة¹⁴. وهذا بالضبط ما يختبره السيناريو الخالي من الاتصال الجسدي، وهي نقطة يصرّ عليها الجيل الشاب بكلماته الخاصة: كلمات الغد النفسية والصدمات والصّدّة النفسية.

ما يتغيّر حسب المجموعات: العتبة، لا القاعدة

قاعدة استنزاف سبل الانتصاف هي نفسها في كلّ مكان. أمّا ما يتغيّر من صنف من المجموعات إلى آخر فهو العتبة التي تنطلق منها. فلدى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعرّض، العتبة منخفضة: تكفي صفة واحدة من شخصيّة السلطة للحديث عن تعذيب، لأنّ الجوهر متوقّر أصلاً، أي استحالة الردّ. ومنطقهم علاقي، أي أنّ ما يهمّ ليس شدّة الضربة، بل موقع من يوجّهها.

أمّا لدى شباب مجموعات الخطر العادي للتعرّض، فالعتبة أعلى. فالصفة تبقى عنفاً أو سوء معاملة: أمّا لفظ «التعذيب» فيقتضي الأقصى أو التكرار أو التنظيم (منظومة عنف راسخة تعيد إنتاج نفسها). ومنطقهم مفهومي بالأحرى: فالتعذيب مقولة خطيرة، محفوظة للحالات القصوى.

¹⁴. لتلقي هذه النتيجة مع البحث السريري حول التعذيب النفسي (Reyes, 2007; Pérez-Sales 2017) وحول الإهانة بوصفها اعتداء على الانتماء (Lair, 2023; Sironi et Branche, 2002).

«العنف يوصل لدرجة يولّي تعذيب، ماهوش أي عنف وبرا». *L'extrême [...]*

مجموعة صفاقس

ولنحتفظ إذن بالسردية التي يبنّيها الشباب. «العنف» هو اللفظ الأوسع: كلّ فعل يؤدي، بما في ذلك العنف بين المواطنين، و«سوء المعاملة» يدلّ على عنف شخصيّة تمثل سلطة حين يبقى سبيل للانتصاف ممكناً بشكل أو بآخر، أو حين لا يُبلغ عتبة الخطورة. أمّا «التعذيب» فمحفوظ للوضعيات التي تضرب فيها السلطة ولا تعود فيها سبل التفاعل ممكنة، أي حين تكون ميّنة. ودرجة خطر التعرّض لا تغيّر هذه التراتبية؛ فهي فقط تزرّح نقطة الانتقال بين سوء المعاملة والتعذيب.



04. شباب مجموعات الخطر العادي للتعرض: تمثل يبنى عن بُعد

تكوّن التمثّل الاجتماعي

لم يعيش شباب تونس وصفاقس وسوسة وقابس، في أغلبهم، تجربة مباشرة مع عنف شخصيات السلطة الرسمية. فتمثلهم الاجتماعي للتعذيب وسوء المعاملة ينشأ من الاحتكاك بالإعلام والمدرسة والتاريخ: قضايا قضائية تتداولها الألسن، وروايات، وصور. ويظهر ذلك في كلماتهم المكتوبة أو المنطوقة، وخرائطهم الذهنية مجرّدة إلى حدّ ما: تدور حول ظلم المؤسسات، والسلطة السياسية، وعنّف السلطة بوصفه ردّ فعل على شيء ما، مثل استفزاز أو جنحة أو نظرة تمييزية.

وحيث يصف آخرون مشاهد، يصف هؤلاء الشباب منظومة. وقد سجّلت ملاحظة موهبة أثناء تنشيط مجموعات النقاش، ووجدت تفسيرها بعد تحليل المعطيات: أظهر أغلب شباب مجموعات الخطر العادي للتعرض صعوبة في رواية مشهد نموذجي لـ«التعذيب وسوء المعاملة». ويُفسّر ذلك بتمثلهم المجرد والمفهومي لظاهرة التعذيب وسوء المعاملة. فمعجمهم هو معجم السياسة: تجاوز السلطة، و«السلطة»، و«السيستام»¹⁵.

«التسلّط هو اللي ينجّز عليه تعذيب.»

مجموعة سوسة

آلية استمرار التمثّل الاجتماعي

ينتقل هذا التمثّل ويستمرّ من خلال موارد الكلام. فهؤلاء الشباب يكتفون النقد في صيغ تنتقل من فم إلى فم، ويفسّون صبر الجماعة بأسئلة من قبيل «إلى متى؟»، ويحيون الذكرى عبر قضايا بعينها: وقائع حقيقية بتفاصيلها، تُستعمل أدلة على أنّ الظاهرة موجودة. والعتبة المرتفعة جزء من هذا الاستمرار أيضًا: فب حفظ لفظ «التعذيب» للحالة القصوى، تحمي المجموعة خطورة اللفظ.

«قضية حقيقية صارت بكلّ التفاصيل متاعها، ما فيها حتّى [...] حاجة من الخيال، [...] مشى هكّة باش ما يجيش واحد بعدو.»

مجموعة سوسة، بخصوص شابّ ثوّمي إثر تفاعل مع السلطات

¹⁵ . «السلطة»: الفوق، النفوذ. «التسلّط»: تجاوز السلطة، الهيمنة. وهما لفظان من المعجم السياسي والمؤسسي: بصفان منظومة أكثر مقابضان مشهودا معيشا.

تطوّر التمثّل الاجتماعي

لدى هؤلاء الشباب، يتطوّر التمثّل الاجتماعي من خلال النقاش، فتتواجه المواقف علناً داخل المجموعة: شخص يترّص صفة «تربويّة»، وآخر يعارضه، ويبقى النقاش مفتوحاً. وعلاقتهم بالدولة تتّبع المنطق نفسه: النقد حادّ، لكنّه يظلّ مسكوناً بالتعلّق بالدولة. هؤلاء الشباب لا يريدون دولة أقلّ، بل يريدون دولة تحمي.

«ما تحيّينا نوليّو مع le système، هكّا علاش لازموا يتبدّل».

مجموعة تونس

وكلمة أخيرة عن علاقتهم بالاستثناءات. فحين تكون الضحية «تساهل» (سارق، مغتصب...), يُقال التسامح مع العنف لدى هؤلاء الشباب بصوت مرتفع، ويُحاجج عليه بالاستحقاق المفترض للشخص. ويفضّل القسم 7 من هذه الدراسة، المخصّص للبعد التمييزي، هذه المواقف وحدودها. ولنحتفظ هنا بالنقطة البنيويّة: بالنسبة إلى هؤلاء الشباب، لا يكلف قبول استثناء شيئاً يذكر، لأنّ الضحية هي دائماً شخص آخر.



05. شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعرض: تمثل يتعلم بـ«الجسد»

تكوين التمثيل الاجتماعي

بالنسبة إلى الشباب المعنيين بالقانون 52، وشباب الأحياء الشعبية، والأشخاص المجتمع ميم-عين، ومشجعي الرياضة، والناشطين، ينشأ تمثيل التعذيب وسوء المعاملة من التجربة القريية: المعيشة، أو الملاحظة، أو المروية من المقرين. وتصف الدراسة بدقة كيف يتعلم: يبدأ الدرس في العائلة، ويتأكد في المدرسة، ويتثبت في الشارع، ثم يختم أساساً في مركز الشرطة أو في مراكز الإيقاف. وقبل أي خطاب، يكون الجسد قد عرف:

«هذي نعرفها من صغري: كي تشوف كرهبة الحاكم [البوايس] تهرب وحدك. هذي مترين عليها من صغرا.»

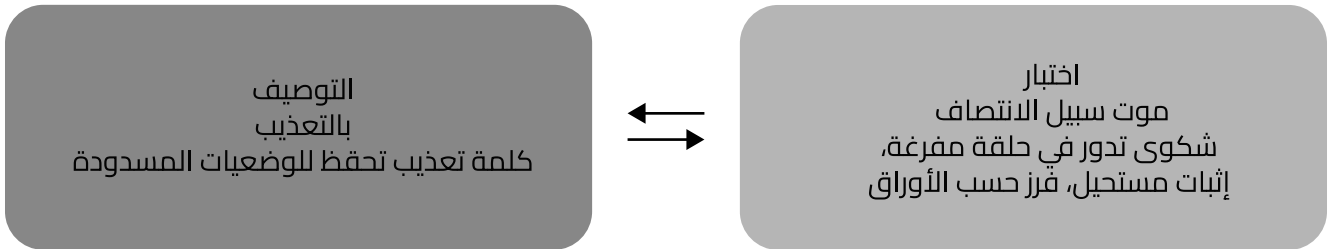
مجموعة الأحياء الشعبية

وخبرتهم الذهنية ملموسة (على عكس خريطة شباب مجموعات الخطر العادي للتعرض التي هي مجردة). وأقوى رابط في معجمهم يصل بين «الضرب» و«السب و الشتم»: فالعنف الجسدي والعنف اللفظي يشكّلان حركة واحدة. أما السلطة التي تخيف فتجاوز الشرطة وحدها: إذ تشمل السجن والمعلم والعائلة، أي كلّ الشخصيات التي تستطيع أن تضرب دون أن يمكن الردّ عليها. وكلماتهم هي كلمات التفاعل المعيش: «الحاكم»، «الحفرة».

آلية استمرار التمثيل الاجتماعي: حلقة تنغلق

لدى هؤلاء الشباب، يستمرّ التمثيل في حلقة تقوم على تجربتين مترابطتين، الأولى: أن يختبروا، بشكل ملموس، أنّ كلّ سبل الحصول على الإنصاف مسدودة. والثانية: أن يحفظوا لفظ «التعذيب» لهذه الوضعيات المسدودة بالتحديد. وكلّ تجربة تغذي الأخرى، فعطب آليات الانتصاف يمنح لفظ «التعذيب» معناه الدقيق، وكلّ استعمال لهذا اللفظ يعيد القول، بصوت عالٍ، إنّ سبل الانتصاف لا تعمل.

التجربة هي التي تمنح الكلمة معناها...



... وكل استعمال للكلمة يُعيد القول إن سبيل الانتصاف لا يشتغل.

حلقة تغذي التمثل الاجتماعي للتعذيب وسوء المعاملة.

الرسم 2. الحلقة التي تُبقي التمثل حيًا لدى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعرض.

هذا العطب في سبيل الانتصاف ليس مجرد انطباع غامض . فالشباب يصفونه قطعة قطعة، فالشكوى تدور في حلقة مفرغة :

«ريت تمشي تشكي، باش تشكي بشكون؟ [...] باش يلقاه زميل، باش يقولك بزا روح ما عادش تعاودو حتى بالفلقة الموضوع هذيًا.»

مجموعة الأحياء الشعبية

والإثبات شبه مستحيل، لأن كلمة العون تزن أكثر من كلمة المواطن:

«باش تتحط في محكمة ولا باش تتحط في مركز ولا باش تتحط قدام حتى وكيل الجمهورية، ما عندكش preuve [...] وخلي عاد كان الزوز: ثلاثة هو الي كفر وزوز شهود الي ما كفرش، ويمشي صابونك نظيف.»

المجموعة الذكورية المعنية بالقانون 52

أما المعاملة من قِبل أعوان الدولة فتتقرر في الغالب بقراءة الأوراق، أو الوضع الاجتماعي، أو المظهر الجسدي واللباس:

«كيما بوليسي باش تمذلو بطاقة الي إنت عامل يومي، كيما بوليسي باش تمذلو بطاقة الي إنت طبيب: ثقة معناها معاملة. [...] هذا العامل اليومي باش يحقرك ينجم [...] كيما طبيب باش يحترمك في نطاق محدود.»

مجموعة الأحياء الشعبية

تطور التمثيل الاجتماعي: استراتيجيات تجنب وكلام يتراجع عن نفسه

أمام هذه الوضعية، يتطور هؤلاء الشباب استراتيجيات دقيقة، محفورة في الجسد: تجنب أماكن التثبيت وأوقاته، والصمت احترازاً في اللحظة، ثم التعبير لاحقاً، في فضاءات الجماعة (الملعب، المجموعة، الجمعية) عفاً لم يمكن قوله في مواجهة العون وبشكل فردي.

«باش ناكلها في عظامي ونسكت، ولا كي باش ندخل استاد باش نخرجها.»

مجموعة مشجعي الرياضة

ويتطور تمثيلهم أيضاً بمنازعة كلمات السلطة. فرفض تسمية من يضرب «حاكفاً» هو في حد ذاته استرجاع لجزء من السلطة:

«الحاكم ربي يا خويا. [...] أنا يقولّي وهو يحكي يقولّي حاكم، نقولّو مكش حاكم.»

المجموعة الذكورية المعنية بالقانون 52

وثقة سمة أخيرة تميز هؤلاء الشباب: فهم يعرفون أنهم قد يكونون هم أنفسهم ضمن قائمة الأشخاص الذين يمكن «استثناؤهم»، وتصنيفهم في ملفات، وفرزهم، ووسمهم. ومن ثم، فإنّ الدفاع عن حظر التعذيب بالنسبة إلى الجميع، بمن فيهم المذنبون، هو أيضاً شكل من أشكال حماية الذات. وهذا أحد أسباب كون الدفاع عن المبدأ الكوني هو الأشدّ حرماً، تحديداً، لدى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعرض.

«باش ما نطيحوش زادة في المرتع اللي طايحين فيه العباد اللي أحنا قاعدين نحاربو فيهم.»

مجموعة المجتمع ميم-عين

06. ما تتقاسمه المجموعة بأكملها: تمثّل اجتماعي مشترك، قُصان وفي حركة

لا يصل صنف المجموعات إلى التعذيب وسوء المعاملة بالطرق نفسها. ومع ذلك، فأربعة أشياء لا تتغيّر أبدًا من صنف إلى آخر: (1) قاعدة موت سبل الانتصاف في تعريف التعذيب، (2) واختيار القانون ضد الانتقام، (3) ومساءلة الإرث الجيلي للتسامح مع العنف، (4) ورفض القطيعة مع الدولة. ويصف هذا القسم كيف يستمرّ هذا التمثّل المشترك ويتطوّر على مستوى المجموعة بأكملها.

1.6 ما يُبقي تمثّلهم الاجتماعي: نظريّة تلتمس العذر للمنظومة

ثقة نتيجة لا تظهر إلّا حين تُجمع المجموعات العشر: نظريّة شعبيّة عن الجَلَد. فهي تربط الخوف والكراهية والانتقام والكلام البذيء والضعف بـ«قلّة تربية»: أي إنّ العون يضرب لأنّه سيّئ التربية وتستبدّ به انفعالاته. وهذه النظريّة لا تحملها أيّ مجموعة بمفردها؛ بل هي فكرة مشتركة لا يظهرها إلّا جمع الصنفين.

ولهذه النظريّة الشعبيّة وظيفة مزدوجة: فهي تدين الفرد، لكنّها تلتمس العذر للمؤسسة. إذ إنّ التعذيب، إن كان صادرًا عن عيب شخصي، فهو لا يصدر عن منظومة¹⁶. وهذه إحدى الآليات التي تتيح للحظر والممارسة أن يتعايشا؛ أي إنّها، بعبارة أخرى، استراتيجية تكيف تسمح بالتعايش مع واقع يؤلم ويُرفض في آن واحد، وطريقة لإيجاد تسوية نفسية.

2.6 ما يُبقي أيضًا تمثّلهم الاجتماعي: الشرعيّة المخدولة

قد يتوقّع أن يدفع عطب آليات الانتصاف الشباب إلى رفض القانون. والمدهش أنّ العكس هو ما يحدث. وتنتج الدراسة عن «شرعيّة مخدولة». فالشباب يطالبون بالقانون وهم يعلمون أنّه يفشل. وليس هذا تناقضًا، بل هو مطلب: فالمطالبة بأن تصل الشكوى أخيرًا إلى نتيجة هي مطالبة بأن يعود التعذيب مستحيلًا.

«الأمن الجمهوري يحمي الأممي... قبل ما يحمي المواطن.»

مجموعة سوسة

ولا تختار أيّ من المجموعات العشر القطيعة مع الدولة. ولا أحد يتخلّى عن مطالبة الدولة بأن تحمي. بل يختار الجميع الاحتجاج من الداخل¹⁷.

16. إنّها آنية معروفة جدًا في البحث: يعترف بالواقعة، لكن يُرفض أن يرى سببها في المنظومة (Cohen, 2001 ; Crelinsten, 2003 ; Bandura 2002, 1999). وبادانة الأفراد، يحمي الجهاز (Kearns, 2015).

17. بعبارة (Albert Hirschman, 1970)، يمكن للمرء، أمام مؤسسة تخدله، أن «يرحل» (exit)، أو «يخجّ» (voice)، أو «يقي وفاء» (loyalty). وهنا، لا تختار أيّ مجموعة الرحيل: بل يختار الجميع الاحتجاج من الداخل، بتعلّق موضوع تحت التوتر، لكنّه غير مقطوع.

3.6 ما يُنشّط تداول التمثّل الاجتماعي: ذاكرة الموتى الرمزيين والكلمات المشتركة

حين نتحدّث عن «ذاكرة متداولة»، فهي تدلّ على شيء دقيق: أشخاص ماتوا في سياقات عنف مؤسّساتي أصبحوا مراجع تعرفها كلّ المجموعات، وهذه المراجع تنتقل من مجموعة إلى أخرى مع الكلمات والصيغ التي تصاحبها. مشجّع مات غرماً بعد مباراة، وشابّ مات في الاحتفاظ لانعدام الإسعاف، ومناضلون ماتوا في السجن: كلّهم يُسَقّون وتُروى قصصهم في النقاشات. وهؤلاء الموتى لا يلعبون الدور نفسه لدى الطرفين، فبالنسبة إلى شباب مجموعات الخطر العادي للتعريض، هم بمثابة الأدلة: الرهان الذي يُحتجّ به على كلّ من يشكّك في أنّ الظاهرة حقيقة. أمّا بالنسبة إلى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعريض، فهم يعيشون حدادا: بيكيهم هؤلاء الشباب كما يكون المقرّبين، وتصبح هذه الخسارات قضية يُدافع عنها. وهذا التداول — للقضايا والأسماء والصيغ — هو ما يجعل تمثلاً مشتركاً يصمد رغم تجارب شديدة التفاوت.

4.6 ما يُطوّر التمثّل الاجتماعي: جيل يرفض أن يرث

من جهة، يُنظر إلى التسامح مع العنف بوصفه إرثاً من الأجيال السابقة، انتقل بكلماته واستعلاماته:

«وژتوّهالنا، وژتوّهالنا، لغة الصبايحية¹⁸، وژتوّهالنا، الجيل اللي قبلنا وژتوّهالنا.»

مجموعة الذكور المعنوية بالقانون 52

ومن جهة أخرى، يعيش هذا الجيل نفسه بوصفه جيلاً مفصّلياً، فهو يترجم العنف إلى لغة جديدة، لغة الغقد النفسية والصدمات والصحة النفسية. وهذه اللغة تجعل من الممكن أن يُسقى ضرراً ما كان الإرث يصفّه تحت لفظ «الترية». والنتيجة: تنازع عتبة ما لا يُحتمل، ويتسع تعريف التعذيب إلى ما وراء المرئي، نحو الاحتقار والصمت المفروض والإهانة.

«نحسّ الجيل القديم normalized it [...] أما الجيل [الحالي] توّا خاصّة مركزين على le bien-être هكّا l'étatg psychologique هكّا، donc قاعدة توّلي حاجة ماهيش normalisée.»

المجموعة النسائية المعنوية بالقانون 52

¹⁸. «الصبايحية»: لفظ تحفيري يدلّ على الأشخاص الخاضعين، أولئك الذين يطأطئون رؤوسهم.

07. البعد التمييزي:

حين تغيّر هويّة الضحية الحكم

يجب هذا القسم عن السؤال البحثي الثالث للدراسة، ويستحقّ قراءة متأنية، لأنّ نتائجه من أقوى النتائج. والسؤال بسيط: حين تعنف السلطة شخصًا، هل يحكم الشباب على الفعل دائمًا بالطريقة نفسها؟ والجواب لا. هويّة الشخص المعنف، وأصله، وميله الجنسي، وجنسه، وطبقته الاجتماعيّة، أو ما فعله، كلّها تزن في الحكم. غير أنّ هذا الوزن لا يُرى دائمًا من الوهلة الأولى، لأنّه يفعل في صمت في الغالب.

1.7 المبدأ المُعلن وما يجري تحته

تؤدّد كلّ المجموعات المبدأ نفسه: التعذيب محظور، بالنسبة إلى الجميع. أمّا في الممارسة، وأمام ضحايا بعضهم، فيتصدّع هذا المبدأ، دون أن يتحقّله أحد علنًا. وهذه هي «المنطقة الصامتة» الموصوفة أعلاه: قاعدة تُعلن بصوت مرتفع، وتُعلّق في صمت بمجرد أن تتغيّر هويّة الضحية. وأبرز مثال في المدوّنة يأتي من مجموعة المجتمع ميم-عين:

«أنا ولد X منطقة شعبيّة [...] وما هو معروف على المناطق الشعبيّة كلّ هي كرهنا للحاكم [...] وقتلي صارت هاكي الحملة اللي في العامرة [...] أحنا عنّا groupe متاع حي X [...] جاب أكثر من 2000 like على هاكا الفيديو متاع البوليسيّة [...] كيفاش هاذين يضربو في الصحراويّين والصحراويّات [...] بهاكي الدرجات متاع العنف والهّم [...] نفس الـ groupe اللي كانوا يستوّ، يمجّدو فيه في البوليسيّة خاطر يضربو في les subsah-riens»

مجموعة المجتمع ميم-عين

يعلن الحيّ موقفًا واضحًا وكونيًا: كراهية الشرطة. ومع ذلك، فهو يصفّق للشرطة نفسها حين تضرب أشخاصًا من جنوب الصحراء¹⁹. فالفعل نفسه، الفدان حين يستهدف الحيّ، يصبح مقبولًا حين يستهدف مجموعة خارجيّة²⁰. ولنلاحظ الشكل الذي تتّخذ هذه الموافقة: لا أحد يصرّح بأنّه «يرى أنّ من حقّنا تعذيب المهاجرين». فالتبرير يمرّ عبر إمضاءات: «likes»، و مشاركات، وفيديوهات مُجّدة. فالـ «like» هو الناقل المثالي للمنطقة الصامتة: تدعم، لكنك لا توقّع.

2.7 أمام ضحيّة «مذبذبة»: خمس ردود فعل، وأربع عودات إلى القانون

يُظهر سيناريو السارق (شابّ يضربه عون بعد أن انتزع حقيبة امرأة مسنّة) خمس طرق للتفاعل. وقبل تفصيلها، لنعرّف العبارة التي تستعملها الدراسة: «إرجاع الانتقام إلى القانون» يعني أنّ رغبةً في العقاب بالضرب يُعزّر عنها أولًا، ثمّ يسحبها الشخص أو المجموعة ويُستخلص أنّ العقاب يجب أن يمرّ عبر القضاء، لا عبر العنف. وأربع ردود فعل من أصل خمسة تنتهي هكذا. وواحدة فقط تفضي إلى ضوء أخضر للعنف.

ردّ الفعل الأوّل: التمسك بالقاعدة دون تردّد. تحافظ مجموعة الناشطين، ومجموعة المجتمع ميم-عين، والمجموعة الذكوريّة المعنيّة بالقانون²². ومجموعة صفاقس على الموقف نفسه من البداية إلى النهاية: يبقى التعذيب محظورًا، حتّى بالنسبة إلى مذبذب. ولا تظهر أيّ رغبة في الانتقام في تبادلاتهم حول هذا السيناريو.

ردّ الفعل الثاني: التراجع الجماعي. تخرج عبارة انتقاميّة، ثمّ تصحّحها المجموعة بنفسها، في النقاش نفسه²¹. وهذا مثال دقيق على الانتقام المُرجع إلى القانون:

19. العامرة: بلدة من جوة صفاقس تجفّع فيها أشخاص مهاجرون من إفريقيا جنوب الصحراء، وتدخلت فيها قوات الأمن.
20. يصف البحث التجريبي هذه الآلية بدقة: فالحكم على فعل عنف واحد بعينه يتغيّر حسب الانتماء الجماعي للأشخاص المعنيين؛ ويعتبر أكثر قبولًا حين تمارسه المجموعة التي ينتمي إليها الحاكم أو حين يستهدف مجموعة خارجيّة. وهي صيغة «It's moral when we do it»، أي «يكون الفعل أخلاقيًا حين نفوم به نحن» (Tarrant, Branscombe, Warner et Weston, 2012).
21. يسعى البحث في المحادثة ذلك «الإصلاح الذاتي»: أي أن تصحّح المجموعة بنفسها، على المباشرة، موقفًا مزجت به للو (Schegloff, Jefferson et Sacks, 1977 ; Billig, 1996).

«يستاھل. [...] ما عندكش علاش باش تضربو [...] إنت خدمتك امسك الجريمة، اخدموها وكهو وتبعثوها [...] لاقضاء.»

مجموعة مشجعي الرياضة، سيناريو السارق

ردّ الفعل الثالث: استعادة الذات. يعترف شخص أولاً بلذّة انتقام، ثم يتوقّف ويصحّ نفسه، على المباشر²². وهكذا تروي مشاركة أّنها كانت «شيخ» وهي تقرأ تعليقات طالب بتعذيب رجل اغتصب طفلاً، ثم تتراجع:

«قلت علام؟ برسمي جاني المّخي، سألت معناها: يخي قلت معناها توّا هو سلّط عنف على طفل معناها اغتصبو وعملو كلّ شيء [...] هو خالف القانون، ماك تعاقبو بالقانون وكهو.»

المجموعة النسائيّة المعنّية بالقانون 52، سيناريو السارق

ردّ الفعل الرابع: التبرير حالة بحالة. يتمتّى الشخص التعذيب لمذنب بعينه، لكنّه يحتفظ بالمبدأ لضحية يعتبرها بريئة²³. ولا تُسحب رغبة الانتقام أبداً؛ ويُحتفظ بالمبدأ للحالة الأخرى. فالقاعدة تُطبّق حين تناسب، وتُعلّق حين يثير المذنب الاشمئزاز.

«في الحالة هذيّا اغتصاب؟ إن شاء الله يتعدّب يموت! [...] لازم ما يكونش معيار التعاطف هو اللي يخلينا أّحنا نتفعلو على القضية هذه بمعايير جماليّة.»

مجموعة سوسة، سيناريو السارق

ردّ الفعل الخامس: الانتقال إلى التبرير. هذه المرّة، تعترف المجموعة بالتوتّر، ثمّ تحسمه لصالح العنف، معروضاً لا بوصفه انتقاماً بل تقويماً مستحقاً²⁴. بل إنّ المجموعة تصوغ عبارة ترفع الضرب إلى مرتبة المنهج التربوي: «علّمو يضرب». وهو ردّ الفعل الوحيد من الخمسة الذي لا يعود إلى القانون.

«هو برجوليّة يستاھل أما ما عندوش الحقّ. [...] الأنواع هذوما موش يمشو بالقانون، يمشو بالضرب، ثقة أنواع لازمتهم ضرب. [...] يستاھل.»

مجموعة قابس، سيناريو السارق

3.7 المحاور الأساسيّة للتسامح التمييزي

يتوزّع التسامح الانتقائي مع العنف على محاور ملموسة. والقاسم المشترك بينها: فعل واحد بعينه يُحكّم عليه بشكل مختلف حسب الشخص الذي يتعرّض له.

الأصل والوضع الهجري: هو أحد أكثر المحاور تكراراً في النقاشات، وهو يعبر صنفّي المجموعات معاً. فالعنف ضدّ الأشخاص من جنوب الصحراء يُبرّر أحياناً علانية، بوصفه شراً لا بدّ منه، مع الاحتفاظ بقدر من الحرج يسقيّه الشباب أنفسهم:

22. هذه القدرة على مرافقة المرء لفكره ثمّ تصحيحه هي ما يسمّيه البحث «العقلنة الذهنيّة» (Fonagy, Gergely, Jurist et Target, 2002) (mentalisation).

23. يسمّي البحث ذلك «تقنية تبريد»: أي طريقة لإراحة الضمير بتعليق القاعدة في حالة عينها (Sykes et Matza, 1957).

24. إنّ شكل من أشكال الإبرار (Cohen, 2001) ومن «ملك الارتباط الأطلاقي» (Bandura, 2002)؛ إذ لم يعد العنف يُسقى عقاباً، بل نقويماً مستحقاً.

«هذيك ضرورة [...] في الأفارقة، خاصّة في الأفارقة [...] وأيّت obligé عليك باش تتعامل معاملة هذيك. هوني تونسي مقسوم زوز أمخاخ: فقة مخّ اللي باش يقولك «إيه يعطيك الصّة وهكّ شنّوا لازم يصير» [...] وفقة العباد اللي تقولك «هذاك شيء ما يصيرش، وفي la fin هو ما عباد كيفنا كيفهم»»

مجموعة مشجعي الرياضة

ويقرأ المحور نفسه في الوعي بتراتيبيّة للاحتقار، تتغيّر فيها المعاملة حسب الجنسيّة:

«هذيك هي معاملة الدولة التونسية. [...] الجزائريين، حتّى الجزائريين يتهنّتلو راهو ويصير فيهم. ليبيا خلي واسكت عاد. [...] تحكي على الأفارقة، شوف الآخرين عربان كيفنا كيفهم [...] نفس المعاملة.»

مجموعة مشجعي الرياضة

الميل الجنسي والهويّة الجندريّة: على هذا المحور، يمكن أن يتّخذ العنف شكلاً أقصى، يُروى بوصفه واقعة معروفة، وتُسقى الكراهية دون موارد:

«واحد نقنوق قتلوه! قتلوه، قالولو «إنت ما تعيشش لهنّا» ويسبّو فيه [...] و قتلوه بالضرب، قتلوه! [...] يكرهونهم للدم معناها.»

المجموعة الذكوريّة المعنيّة بالقانون 52

وفكرة أنّ العنف يكون أسوأ حين يستهدف هويّة الشخص نفسها هي الأوضح لدى من يعيشونها. ففي مجموعة المجتمع ميم-عين، يُلخّص شخص أنّ «العباد اللي le gender identity متاعهم تبان عليهم ولا le sexual orientation يبان عليهم، أنعس برشا»، ويصف آخر «العقوبة المزدوجة» التي تتعرّض لها النساء العابرات في السجن، إذ يُعتدى عليهنّ من الحراس ومن بقيّة السجناء في آن.

جنس الضحيّة: عند تساوي الخطأ، تكون المعاملة أسوأ بالنسبة إلى المرأة. وتشرح مشاركة ذلك انطلاقاً من تجربتها الخاصة مع تثبّت أمني:

«الكلام اللي باش يتقال ليّا أنا، juste على le gender متاعي خاطري أنثى، باش يكون أخيب برشا [...] justeg على خاطر نفس الجريمة تقوم بيها juste مرّا. [...] ينجم إئو يجبروني أني نصّح على محضر [...] juste على خاطر لقاو أني الجانب المستضعف ولا ضعيف.»

المجموعة النسائيّة المعنيّة بالقانون 52

الطبقة الاجتماعيّة والفقر: تتغيّر المعاملة حسب الوضع الاجتماعي المقروء على الأوراق، كما يبيّن المقارنة بين بطاقة هويّة «العامل اليومي» وبطاقة «الطبيب» (القسم 5). ويروي شباب مجموعات الخطر العاديّ للتعرّض الآليّة نفسها من خلال شخصيّة عبد الحميد، وهو «زوالي» (شخص فقير): فلأنّه فقير، تماطله الشرطة حين يأتي ليشتكّي، ويمتدّ ظلمه بلا نهاية. فالفقر إذن يجعل الشخص أكثر تعرّضاً للعنف وأقلّ استماعاً إليه حين يندّد به. بل إنّ بعض المشاركات يسقّين بأنفسهنّ التمييز العاديّ والإنكار الذي يرافقه:

«احنا نعاملو فيهم على أساس الكلّ خايين [...] بإهانة، بمحقراطية [...] حسب لون البشرة، اللي نقولو إئو احنا ما نميزوش، ونقولو «كلوش» ونوجعهم بكلام ونسبّوهم ونعملو فيهم معاملة خايبة.»

المجموعة النسائية المعنية بالقانون 52

المواضعات والاستحقاق المفترض: هو المحور الأكثر تحقلاً علناً، خصوصاً لدى شباب مجموعات الخطر العادي للتعرض: فالعنف يُبرّر بهيئة الشخص أو بما يُفترض أنّه فعله. وحينها يتزاح المعجم: لم نعد نقول «تعذيب»، بل نقول «تربية».

«سامحي، إنت مثلاً الهيئة متاعك ماهيش متاع عبد مريّال [...] العباد هذوكم اللي هوما [...] يمثلو ليك إنت خطر [...] هذوكم راهم يستحقو إئهم حاجة. يستحق موش تعذيب، ما نقولوش تعذيب، نقولو تربية [...] كلا زوج كفوف.»

مجموعة سوسة

«فمّة عباد كي تعاملهم بكرامة وما تضربهمش، وهوما يزيدو يتمدّو [...] ويزيدو مثلاً عبد يولّو عشرة.»

مجموعة قابس

المرجع الديني: لا بدّ من كلمة حذر هنا، لأنّ المعطيات تُظهر بالأساس عكس التبرير: ففي أغلب التبادلات، يُستعمل الدين فرملة. إذ يُستحضر لتبريم الضرب، حتّى ضدّ مذهب:

«باش يضربو حرام [...] هو مشي يضربو غلط.»

مجموعة سوسة

غير أنّ المرجع الديني يمكن أن يُستعمل، في بعض التبادلات، لتبرير عقوبة بدنيّة باسم الشرع:

«ما فقّاش قانون، فمّة قانون ربك سبحانه. [...] بالشرعية، حكم يعطيه بالشرعية. سرق، قُطّلو يديه. حكم ربك سبحانه.»

مجموعة مشجعي الرياضة

لكنّ هذا الموقف يُعارض فوراً بصوت آخر من المجموعة، وينتهي صاحبه بسحبه، واصفاً إيّاه بأنّه «تعبير مزاجي، لا أكثر ولا أقلّ». فالموقف القويّ يُقال، ثمّ يُزَع فتيله في التبادل نفسه.

«إيه عندهم الحقّ! [...] أنا الحقيقة نتشقت أما غلط! [...] تحبّ ولا تكره يقعد إنسان! [...] ما عندكش الحقّ تتدخّل فيه جملة [...] إنت ربّ اللي خلقو باش إنت تقتلوه؟»

المجموعة الذكورية المعنية بالقانون 52، بخصوص أعمال عنف ضدّ أشخاص المجتمع ميم-عين

والفرق الجوهرية هو ثمن الاستثناء. فبالنسبة إلى شباب مجموعات الخطر العادي للتعرض، لا يكأف قبول استثناء شيئاً يُذكر: فالضحية هي دائماً شخص آخر. أمّا بالنسبة إلى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعرض، فكُلّ باب يُفتح يمكن أن ينغلق عليهم وعليه. ويشير هذا الفرق إلى الموضع الذي يجب أن تعمل فيه الوقاية بالأولوية: أي، بعبارة أخرى، حيث لا يكأف الاستثناء شيئاً للشخص الذي يمنحه.

08. أهمّ النتائج

عدّة نتائج من هذه الدراسة تخالف ما كان يمكن توقّعه، وها هي مجملها.

العبارات الأكثر ذكرًا لا تعرّف التعذيب. فـ«الضرب» و«البوليس» و«العنف» و«الظلم» تتركّز لدى الجميع تقريبًا. ومع ذلك، حين تضعها السيناريوهات على المحكّ، لا تصمد أيّ منها بمفردها؛ فالعنف نفسه، إذا ارتكبه جار، لم يعد تعذيبًا. فالتعريف لا يسكن في الكلمات المرئية، بل في قاعدة علاقيّة لا ينطق بها أحد تلقائيًا.

صفحة واحدة يمكن أن تكون تعذيبًا. فبالنسبة إلى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعزّض، تكفي صفحة واحدة من عون للحديث عن تعذيب، لأنّ استحالة الردّ حاضرة أصلًا. بل يمكن أن يوجد التعذيب دون أيّ ضرب: إذ تكفي تهديدات واحتقار وإهانة بلا مخرج.

الشباب الأكثر عرضة لسوء معاملة المنظومة هم أنفسهم من يطالبون بالقانون أكثر من غيرهم. فلا تختار أيّ من المجموعات العشر القطيعة مع الدولة. والشباب الذين يصفون الشكوى التي تدور في حلقة مفرغة والإثبات المستحيل هم أنفسهم من يطالبون بأن يُطبّق القانون أخيرًا. فالخذلان لا ينتج رفضًا، بل ينتج مطالبًا.

الدين يفرمل أكثر ممّا يبرّر. كان يمكن توقّع أن يستعمل المرجع الديني لتبرير العقوبات. والعكس هو السائد في المعطيات: فالدين يُستحضّر بالأساس لتبرير الضرب، حتّى ضدّ مذهب. أمّا الاستحضارات النادرة للشرع لتبرير العنف فتُعَارِض داخل المجموعة نفسها التي قيلت فيها.

نظريّة «الجلاد سيّئ التربية» لا توجد في أيّ مجموعة بمفردها. فهي لا تظهر إلّا حين تُجمع المجموعات العشر. إنّها فكرة جماعيّة بالمعنى القوي: يتقاسمها الجميع، ولا يحملها أحد بعينه. وهي بالضبط التي تحمي المنظومة بتحميل الأفراد كامل الخطأ.

الدفاع الأشدّ حزمًا عن المبدأ الكوني يأتي من الشباب الأكثر تعزّضًا. فالمجموعات التي تتمسّك بالقاعدة دون تردّد أمام سيناريو السارق هي في أغلبها مجموعات خطر متزايد للتعزّض. والسبب واضح الدلالة: فهؤلاء الشباب يعرفون أنّهم مدرجون على قائمة الأشخاص الذين يمكن «استثناؤهم». فالدفاع عن المبدأ بالنسبة إلى الجميع هو حماية للذات.

09. النموذج:

الحماية المعكوسة و المنتقاة

يمكن تلخيص مجموع النتائج في صورة من ثلاثة طوابق، معروضة في الشكل أدناه.

النموذج: الحماية المقلوبة والمفروزة



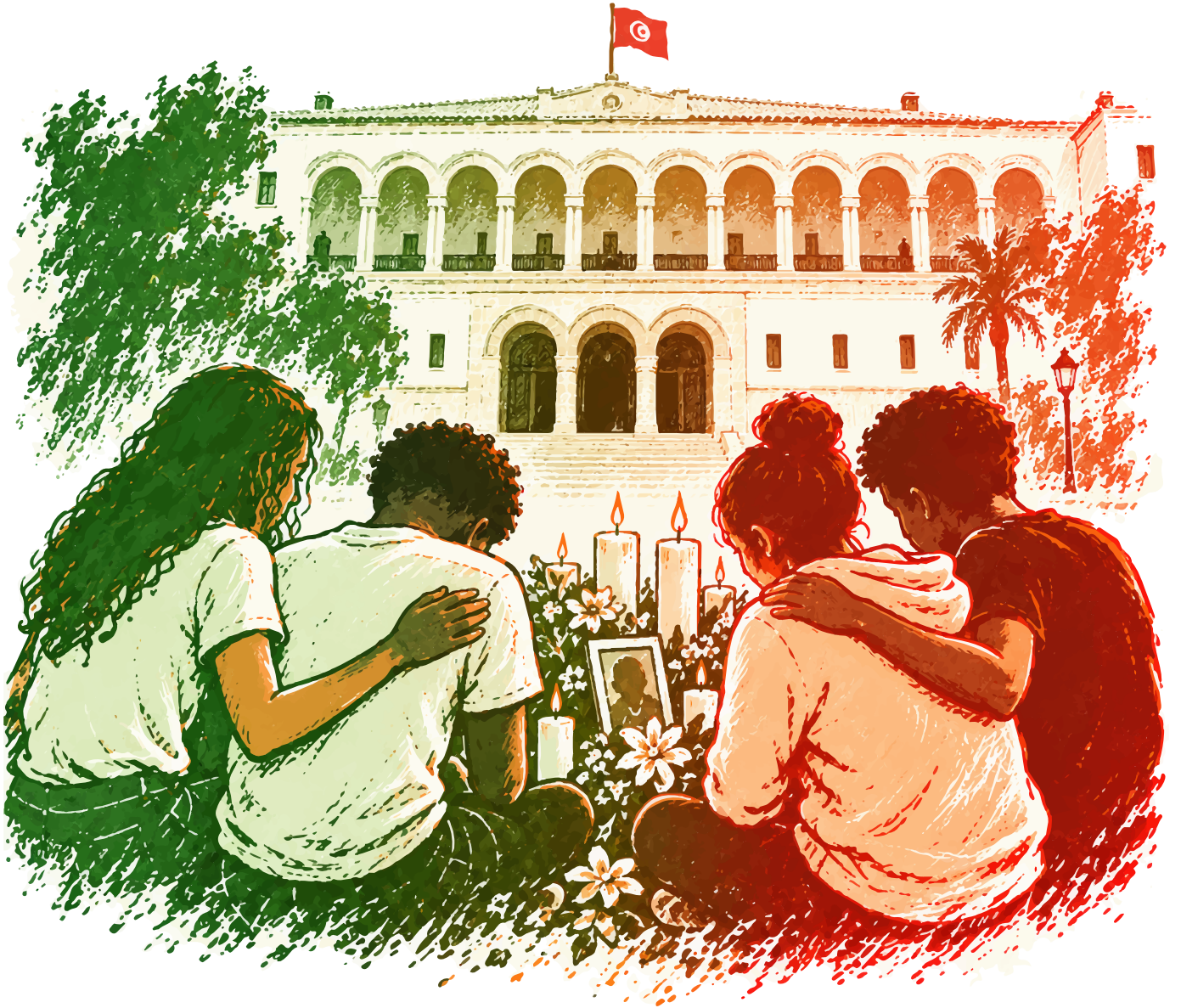
الرسم 3. النموذج العام ذو الطوابق الثلاثة للتمثّل الاجتماعي
للتعذيب وسوء المعاملة لدى الشباب.

الطابق الأول هو القاعدة المشتركة: التعذيب بوصفه حماية معكوسة، أي عنف سلطة يفترض أن تحمي، يُمارس في وضعية يكون فيها الردّ والشكوى والإثبات ميتة سلقاً. والطابق الثاني هو الفرز، وهو لفظ يستعمله الشباب أنفسهم: فالطبقة الاجتماعية والجنس والوصم والحيّ تقرر موقع كلّ شخص على سلم التعرّض، وهذا الموقع يضبط طريقة المعرفة، والعتبة، والاستراتيجيات، وضمن الاستثناء. والطابق الثالث يربط ما يفصله الفرز: ذاكرة الموتى، والكلمات المتداولة، واللغة المشتركة للصحة النفسية تُعيد خياطة الكلّ. فيبقى التمثّل واحداً ومشاركاً، حتّى وإن كانت أبواب الوصول إليه غير متكافئة.

ويفسّر هذا النموذج المفارقة المطروحة في البداية، فالخطر والممارسة يتعايشان لثلاثة أسباب دقيقة. أولاً، نظريّة الجلّاد سيئ التربية تحقّل الأفراد الخطأ وتُخرج المنظومة من دائرة الاتّهام. وثانياً، المنطقة الصامتة توزّع السخط بشكل غير متكافئ حسب هويّة الضحايا. وأخيراً، موت سيل الانتصاف يجعل التعذيب بلا عواقب على من يمارسه. غير أنّ النموذج يظهر أيضاً ثلاث قوى تقاوم، ولا بدّ من تسميتها بدقّة. الأولى هي الشرعائيّة المخدولة: أي المطلب، الذي يطلّ قائماً رغم الإخفاقات، بأن يُطبّق القانون: «ماك تعاقبو بالقانون وكهو».

والثانية هي الذاكرة المتداولة: فالموتى الرمزيون والروايات التي ترافقهم ينتقلون من مجموعة إلى أخرى ويمنعون النسيان: «مشى هكّة باش ما يجيش واحد بعدو».

والثالثة هي الكفّ عن مبدأ: ففي أربع من ردود الفعل الخمسة الموصوفة في القسم 7.2، تُعبر رغبة العقاب بالضرب ثم تُرجع إلى القانون من قبل المجموعة نفسها: «خدمك امسك الجريمة [...] وتبعثها للقضاء». وهذه القوى الثلاث موجودة أصلاً في نقاشات الشباب. ويمكن للوقاية أن تستند إليها.



10. الخلاصات ومسارات العمل

المسار الأول: التعامل مع التعذيب وسوء المعاملة بوصفهما مسألة بنيوية. فلما كان لوهم الأفراد يحمي المؤسسة، وجب أن تستهدف الوقاية ما يُنتج العنف داخل المهنة: الانتداب، والتكوين على التعامل مع الوضعيات المتوترة، والإشراف، والمراقبة الفعلية للأخطاء، وإدارة ضغط الأعوان. ويقول الشباب ذلك بدقة:

«هو كـ agent متدرب، يعرف كيفاش يشدّ عبد من غير ما يضرو، من غير ما يمشو أصلاً [...] كي يلزمو يوقف عند هو شنوا مخولو القانون.»

المجموعة الذكورية المعنية بالقانون 52

المسار الثاني: إصلاح سبل الانتصاف. وهي الأولوية. فما دامت الشكوى تدور في حلقة مفرغة، وما دام الإثبات مستحيلًا، فإنّ كل اعتداء يأتي ليؤكّد قلب التمثل: سبيل الانتصاف ميّت. ومن شأن سبل شكوى مستقلة وقواعد إثبات منصفة أن تغيّر الشروط ذاتها التي تغذّي هذه القناعة.

المسار الثالث: الاستناد إلى ما يحمي أصلاً. فالمجموعات تعرف كيف تتراجع، وتستعيد نفسها، وتعود إلى القانون، كما تُظهر ردود الفعل الموصوفة في القسم 7.2. ويمكن لأنشطة تجمع شبابًا من السنّ نفسها أن تجعل هذا الانتقال من الانتقام إلى القانون مرئيًا، خصوصًا حيث يُعزّز عن التسامح في صمت.

المسار الرابع: الاعتراف بتجفّعات الشباب بوصفها نقاط استناد. فمجموعات المشجّعين، والجمعيات، والتجفّعات النضالية: هذه الفضاءات تستقبل التعبير المؤجّل («كي باش ندخل الستاد باش نخرّجها»), وتحمل الذاكرة، وترقم ما يتركه التخلّي على الهامش. ودعمها يعني تقوية مقامات الأمان التي تحوّل التعرّض إلى كلام، لا إلى عنف.

10. حدود الدراسة وآفاق البحث

لهذه الدراسة، كأى دراسة، حدودها، ومعرفتها تساعد على قراءة نتائجها قراءة سليمة. فلم يتسنّ جمع أى مجموعة تتألف حصرياً من ناجيات وناجين، لأسباب أخلاقية؛ والكلام القريب من المعيش حاضر بقوة في الروايات بصيغة المتكلم لدى شباب مجموعات الخطر المتزايد للتعرض، لكن التجربة الخاصة للضحايا المباشرين تستحق دراسة مستقلة. كما أنّ السريّة الجماعية، التي تحمي الأشخاص، فرضت تحليلاً على مستوى المجموعة لا على مستوى الأفراد، وهو ما يظلّ منسجماً مع الطابع الجماعي لأيّ تمثيل اجتماعي.

ويستند تحديد السنّ إلى تصريح المشاركين والمشاركات، وقد يكون قد تسلّل إلى المجموعة بعض الأشخاص الذين تجاوزوا 23 سنة. وتلتقط الدراسة صورة في لحظة بعينها، في حين أنّ انزياح عتبة التسامح بين الأجيال حركة تجري على المدى الطويل. وأخيراً، تبقى مصادقة المشاركين والمشاركات على النتائج أمراً لم يُنجز بعد، وتقتضي قراءة خرائط الكلمات حدراً: إذ لا ينبغي تحميلها أكثر ممّا تُظهره.

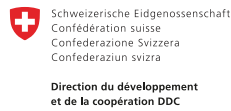
وترسم هذه الحدود ما ينبغي القيام به من أعمال لاحقة. فمن الموصى به بشدّة تتبّع انزياح عتبة ما لا يُحتمل عبر الزمن، وتوسيع الدراسة إلى الناجيات والناجين في شروط أخلاقية صارمة، وعرض النتائج على المشاركين والمشاركات للمصادقة عليها، وإجراء مقارنات مع بلدان أخرى لاختبار نموذج الحماية المعكوسة والمفروزة.



- Abric, J.-C. (Dir.). (2003). Méthodes d'étude des représentations sociales. Érés.
- Bandura, A. (1999). Moral disengagement in the perpetration of inhumanities. *Personality and Social Psychology Review*, 3(3), 193-209. https://doi.org/10.1207/s15327957pspr0303_3
- Bandura, A. (2002). Selective moral disengagement in the exercise of moral agency. *Journal of Moral Education*, 31(2), 101-119. <https://doi.org/10.1080/0305724022014322>
- Billig, M. (1996). *Arguing and thinking: A rhetorical approach to social psychology* (2e éd.). Cambridge University Press.
- Charmaz, K. (2014). *Constructing grounded theory* (2e éd.). Sage Publications.
- Cohen, S. (2001). *States of denial: Knowing about atrocities and suffering*. Polity Press.
- Crelinsten, R. D. (2003). The world of torture: A constructed reality. *Theoretical Criminology*, 7(3), 293-318. <https://doi.org/10.1177/13624806030073003>
- Flament, C., & Rouquette, M.-L. (2003). *Anatomie des idées ordinaires: Comment étudier les représentations sociales*. Armand Colin.
- Fonagy, P., Gergely, G., Jurist, E. L., & Target, M. (2002). *Affect regulation, mentalization, and the development of the self*. Other Press.
- Guimelli, C. (2003). Le modèle des Schèmes Cognitifs de Base (SCB) : Méthodes et applications. Dans J.-C. Abric (Dir.), *Méthodes d'étude des représentations sociales* (p. 119-143). Érés.
- Haut-Commissariat des Nations Unies aux droits de l'homme. (2022, 6 avril). Tunisie : des progrès réalisés mais des préoccupations persistent, selon un organe de prévention de la torture de l'ONU [Communiqué de presse]. Nations Unies.
- Hirschman, A. O. (1970). *Exit, voice, and loyalty: Responses to decline in firms, organizations, and states*. Harvard University Press.
- Jovchelovitch, S., & Zittoun, T. (2004). Contextualiser les focus groups : Comprendre les groupes et les cultures dans la recherche sur les représentations. *Bulletin de psychologie*, 57(471), 245-252.
- Kearns, E. M. (2015). The study of torture: Why it persists, why perceptions of it are malleable, and why it is difficult to eradicate. *Laws*, 4(1), 1-15. <https://doi.org/10.3390/laws4010001>
- Lair, F. (2023). À propos de l'expérience de la torture. *Annales Médico-Psychologiques*, 181(2), 137-141. <https://doi.org/10.1016/j.amp.2022.04.019>
- Moscovici, S. (1976). *La psychanalyse, son image et son public* (2e éd.). Presses Universitaires de France. (Œuvre originale publiée en 1961)
- Nations Unies. (1984). *Convention contre la torture et autres peines ou traitements cruels, inhumains ou dégradants*. <https://www.ohchr.org/fr/instruments-mechanisms/instruments/convention-against-torture-and-other-cruel-inhuman-or-degrading>
- Negura, L. (2006). L'analyse de contenu dans l'étude des représentations sociales. *SociologieS*. <https://doi.org/10.4000/sociologies.993>
- Organisation mondiale contre la torture. (2026a). *Index mondial de la torture 2026 : Fiche d'information - Tunisie*. OMCT. <https://www.omct.org/en/global-torture-index?country=tunisia>
- Organisation mondiale contre la torture. (2026b). *Rapport SANAD : bilan annuel mai 2025 - avril 2026*. OMCT. <https://omct-tunisie.org/wp-content/uploads/2026/07/FR-Rapport-Annuel-Sanad-2026-version-pages.pdf>

- Paillé, P., & Mucchielli, A. (2008). *L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales* (3e éd.). Armand Colin.
- Patton, M. Q. (2015). *Qualitative research & evaluation methods* (4e éd.). Sage Publications.
- Pérez-Sales, P. (2017). *Psychological torture : Definition, evaluation and measurement*. Routledge.
- Reyes, H. (2007). The worst scars are in the mind: Psychological torture. *International Review of the Red Cross*, 89(867), 591-617. <https://doi.org/10.1017/S1816383107001300>
- Salazar Orvig, A., & Grossen, M. (2004). Représentations sociales et analyse de discours produit dans des focus groups : Un point de vue dialogique. *Bulletin de psychologie*, 57(471), 263-272.
- Schegloff, E. A., Jefferson, G., & Sacks, H. (1977). The preference for self-correction in the organization of repair in conversation. *Language*, 53(2), 361-382. <https://doi.org/10.2307/413107>
- Sironi, F., & Branche, R. (2002). La torture aux frontières de l'humain. *Revue internationale des sciences sociales*, 174(4), 591-600. <https://doi.org/10.3917/riss.174.0591>
- Sykes, G. M., & Matza, D. (1957). Techniques of neutralization: A theory of delinquency. *American Sociological Review*, 22(6), 664-670. <https://doi.org/10.2307/2089195>
- Tarrant, M., Branscombe, N. R., Warner, R. H., & Weston, D. (2012). Social identity and perceptions of torture : It's moral when we do it. *Journal of Experimental Social Psychology*, 48(2), 513-518. <https://doi.org/10.1016/j.jesp.2011.10.017>
- Vergès, P. (1992). L'évocation de l'argent : Une méthode pour la définition du noyau central d'une représentation. *Bulletin de psychologie*, 45(405), 203-209.

تتقدّم المنظمة العالمية لمناهضة التعذيب بجزيل الشكر إلى الاتحاد الأوروبي، والوكالة السويسرية للتنمية والتعاون، ومملكة هولندا، على دعمهم المالي الذي مكّن المنظمة من إنجاز هذه الدراسة بالشراكة مع كلّ من جمعية «أولدنا» و«افريقية» و «MHPSS ProCareFirm».



تتحقّل المنظمة العالمية لمناهضة التعذيب وشركاؤها في إنجاز هذه الدراسة المسؤولية الكاملة عن محتوى هذا المنشور، ولا يُعبّر هذا المحتوى بالضرورة عن آراء أو مواقف الجهات المانحة. كما أن المصطلحات والمفاهيم الواردة في هذه الدراسة لا ينبغي تفسيرها على أنها تعبّر عن موقف قانوني أو سياسي بعينه.

يُسمح بإعادة نشر مقتطفات من هذا المنشور، شريطة الإشارة إلى المصدر.

التصميم: LMDK Agency

